العقد الاجتماعي والدستور الأخلاقي
لأخلاقيات الممارسة الطبية العلاجية في الحضارة الإسلامية

The Social Contract and the Ethical Constitution of Medical Practice Ethics in Islamic Civilization

ا.د/ جمال أحمد طه علي (•)

ملخص

يتناول هذا البحث العقد الاجتماعي والدستور الأخلاقي لأخلاقيات الممارسات المهنية الطبية في الحضارة الإسلامية، من عدة محاور الأول منها يتناول مفهوم الأخلاق مصطلحا ومفهوما، أما المحور الثاني فيتناول العلاقة الرابطة بين الطبيب والمريض، والكيفية التي كان يتم بها تنظيم الممارسة الأخلاقية الطبية وأثرها الاجتماعي على الطبيب، أما المحور الثالث فيعالج إشكالية إدارة تعاطي الدواء والوصفات الطبية والجرعة، والمراقبة الصارمة للعلاج.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الإسلامية، التراث الطبي، العقد الاجتماعي، الدستور الأخلاقي، علم الأدوية.

(•) أستاذ التاريخ الإسلامي – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

Summary

This research discusses the social contract and the ethical constitution of professional medical ethics in Islamic civilization from several topics. The first topic examines the concept of ethics: the term and the broader meaning. The second topic explores the relationship between the physician and the patient, how ethical medical practice is regulated, and its social impact on the physician. The third topic addresses the issue of managing medication use, prescriptions, dosage, and the strict monitoring of treatment.

Keywords: Islamic Civilization, Medical Heritage, Social Contract, Ethical Constitution, Pharmacology.

المقدمة:

مما لا شك فيه، أنه يتزايد الأن لدى المجتمع الإنساني المسلم وغير المسلم الذي يعيش على أرض الإسلام الطلب على التحلي بالأخلاق الحميدة، والدعوة إلي التخلق في جميع المجالات والمهن التي تمارس سواء داخل مؤسسات الدولة أو خارجها. لا سيما مع مستحدثات ومستجدات الحياة اليومية التي تغلفها وسائل التكنولوجيا التي بدأت تفرز وتطرح علينا قضايا أخلاقية شائكة.

يطرح هذا البحث إشكالية معرفية علمية متجاذبة، أقطاب دائرتها علوم الطب والتاريخ وحضارته وعلم الاخلاق، وهذا الأخير ما زال قادرا علي لمس مناحي ميادين كثيرة مهمة في الحياة ،كما أن علم التاريخ علم يستطيع أن يسلط الضوء على أحد العلوم المساعدة له ألا وهو " علم الحقل الأخلاقي " الذي بدأت تمسه بعض التصرفات الإنحرافية مع التطور العلمي التكنولوجي المتسارع بشكل قوى، كما تطرح هذه الإشكالية المعرفية العلمية البحثية ما مدي فاعلية علم التاريخ في تقنين الممارسة المهنية الطبية للحد من تغول وطغيان التقنيات التكنولوجية، ومواجهة الخروقات العلمية، وغرور الأطباء وتجاوز حدودهم لأدمية الإنسان وكرامته. وهل تفيد طرح هذه الإشكالية العلمية في البحث عن المبهم التراثي الطبي التاريخي في وضع علاقة جديدة بين الطبيب والمريض.

منهج البحث:

اتبع هذا البحث المنهج التاريخي التحليلي الحافر المنقب في نصوص وآثار التراث الطبي والفقهي والتاريخي المؤلف في الحضارة الإسلامية ، وكل ما يتعلق بالأحكام الفقهية الطبية المتعلقة بالصحة والمرض والممارسات الأخلاقية التي على الطبيب المسلم الإلمام بها. راصدا لما أشير إليه من قيم وأخلاقيات ونصائح وأعراف في هذا المجال. وحقيقة هي نصوص وآثار واجتهادات فقهية طبية ما

زالت بحاجة ماسة للمزيد من البحث والتنقيب والتمحيص من أجل إظهارها للواقع المعاش لا سيما للمرضى وكل الممارسين للمهن الطبية والصحية.

مفهوم الأخلاق:

يتحدد معنى الأخلاق في تراثنا الحضاري الإسلامي بمعيارين أساسيين، أولهما: السلوك التلقائي غير المتكلف، ثانيهما : ثبات ورسوخ ودوام الطبع، مما يعنى أن الأخلاق سلوك إنساني نفسي. فطري تلقاءي، كما أنه فعل بشري يمكن اكتسابه من خلال المعايشة المجتمعة.

تعرف الأخلاق لغويا بأنها جمع خلق الذي قوامه الطبع والسجية والجبلة، وربطه ابن منظور بالدين وأنه صورة للإنسان باطنة وهي نفسه، التي تحمل الأوصاف الحميمية الحسنة والقبيحة[١].

أما تعريف الأخلاق كمصطلح ، فعرفت بأنها عبارة عن هيئة في النفس راسخة بها تصدر الفعل بسهولة ويسر. من غير حاجة إلي رؤية أو فكر ، فإن كانت الهيئة مصدر للأفعال الجميلة سميت خلقا حسنا ، وإن صدرت عنها أفعال قبيحة سميت خلقا سيئا[٢]، وجاء تعريف الإمام الغزالي مقاربا للتعريف السابق، إذ يعرف الأخلاق أنها حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ورؤية مؤكدان على السجية فيها .فهي بذلك علم يهتم بتهذيب السلوك ووضع المبادئ الكلية والقواعد الأخلاقية التي يستند إليها هذا السلوك، ودراسة المفاهيم الأخلاقية من خير وشر وعدل وحق، إي أنها تقدم القوالب النظرية[٣].

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٣ ص ١٩٦ .

(٢) الجرجاني : كتاب التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ص ١٠١

(٣) الإمام العزالي : إحياء علوم الدين، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٥ ، ص ٦٤ .

إذا كانت هذه التعريفات تصف الأخلاق النظرية، إلا أنه هناك جانب عملي للأخلاق وهو الذي يهدف إلي تطبيق هذه المبادئ على السلوك بحيث يظهر أثر هذا الجانب النظري على المجتمع. وهذه التعريفات وغيرها تؤكد على أن الأخلاق تعبيرا على الآداب العامة والقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع بصورة ما.

قال الله سبحانه وتعالي في كتابه الكريم { وإذا مرضت فهو يشفين }[١] وقال نبينا صلى الله عليه " من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن "[٢]

قد أشارت مصادر التراث الطبي إلي أن مجموع الأطباء اجتمع لهم فضل وخصال لم تجتمع لغيرهم خلاصتها :

أ- أن أهل الملل والأديان اتفقوا على تفضيل صناعته وهى الطب.

ب - أنهم هم الذين يفزع إليهم المريض ويستغيث بهم حين لا ينفع سواهم، ومن ثم جاء اعتراف الملوك والسوقة بشدة الحاجة إليهم.

ج - من خلال عملهم لمحاولات برء المرض عن المريض يدخلون الراحة والسرور على مرضاهم.

د - التشوق الكبير للإنسان حين يسأم أكرم الناس عليه، وأخصهم إليه، ويكره لقاء أهله وولده، ويشتاق فقط للطبيب، يتروح برؤيته، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته، لكان فيه مندوحة من غيره. ولو لم يكن فضل للطبيب سوى ذلك لكفى به فضلا[٣].

---

[١] سورة الشعراء ، آية ٨٠ .

[٢] أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة والدار قطني والحاكم والبيهقي.

[٣] الرازي : أخلاق الطبيب ، تقديم وتحقيق د / عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة ، دار التراث، ١٩٧٧، ص ٨٧-٨٨ .

لذا تعد شؤون الصحة والمرض هي من أمس أحوال الإنسان، وألصقها بحياته اليومية، بل أكثرها مواجهة له طوال حياته. فكما هو معروف أن المرض بالنسبة للمريض يمثل حالة ألم ووجع وضعف ووهن شديد لقدرة المريض البدنية والنفسية، وأمام هذه الوطأة من الأوجاع والآلام يلجأ المريض بالأخذ بالأسباب والرخصة فيذهب للطبيب المختص بمرضه، ومن ثم تبدأ العلاقة الرابطة بين المريض والطبيب، حيث يقوم الطبيب بممارسة مهنته الطبية العلاجية.

من المعروف أنه على مر العصور حظى المرضى باهتمام بالغ ليس فقط من ناحية العلاج، ولكن أيضا من ناحية حقوقهم كمرضى سواء تم علاجهم في مؤسسات صحية أو بزيارة الطبيب لهم داخل بيوتهم [١] .

لذا رأينا الأطباء يسطرون دساتير أخلاقية في علاقاتهم بمرضاهم ولا شك أن هذه العقود والدساتير تسمو بمهنة الطب وأخلاقها، ليكون هذا العلم من أجمل المفاخر والسعادات، وأجمل المآثر والصناعات، إذ به يحصل حياة النفوس والأرواح وصحة الأبدان، وبه يكون الخلاص من الأمراض والأسقام، والمناص من الأعراض والآلام، ومعلومة لا يتغير بتغير الملك والأديان، ومحصوله لا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة[٢].

بما أن المهن الطبية المختلفة مهن يتخللها الكثير من الممارسات التي تتعلق بها أحكام شرعية دقيقة، وأخري أخلاقية ضاربة في أعماق التاريخ الطبي وممارساته. ويترتب على الخطأ أو الجهل بهذه الممارسات عقوبات دينية وأخرى

---

[١] مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ،الكويت ، ج٩، واجبات المرضى وذويهم نحو أفراد الهيئة الطبية، ص ٢٩ .

[٢] عبد الرحمن النقيب : الإعداد المهني للطبيب عند المسلمين، القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ١٠٠.

قانونية، لذا وجب على الأطباء وكل من يمارسون المهن الطبية أن يراعوا هذا الأصل الشرعي والأخلاقي، وأن يتحروا ضبط خدماتهم الطبية العلاجية وفق هذا المنهاج الشرعي والأخلاقي.

لكننا نستشعر في كثير من الأحيان أننا نعيش ويعيش معنا القائمون على القطاع الطبي والمرضى حالة من التناقض الشديد بما يوجبه الشرع من أخلاق وضوابط شرعية أثناء الممارسات الطبية من قبل الأطباء والمؤدون للخدمات الصحية الأخرى للمرضى، ـ رغم براعتهم ومعرفتهم بأدق التفاصيل في مجال تخصصهم الطبي ـ وبين الجهل أو التغافل لهذه الأحكام والأخلاقيات والأعراف والتقاليد التي تتعلق بالتخصصات الطبية المختلفة، فبعد أن كانت هذه العلاقة وطيدة تغلفها أخلاقيات سامية، فأصاب العلاقة ما أصابها، وهذه بلا ريب حالة غريبة ألمت على أخلاق الممارسات الطبية ومشروعيتها الدينية الإسلامية حيث كما هو معروف أن الشرع الإسلامي بمنهجه المتكامل لا يفصل بين ما هو دنيوي وما هو ديني أخلاقي، بل يمزج بطريقة فذة لا مثيل لها في شرائع سماوية سابقة عنه ما بين الدين والدنيا، وذلك لوجود إنسان يؤمن بالعلم ويتعامل معه على هدى وأخلاق وشرع سماوي وفق قواعد وضوابط وأحكام.

لعل هذا هو سر نجاح الحضارة الإسلامية على مر تاريخها الإنساني الذي نشر على البسيطة جناح العدل، ومنح للحضارات الأخرى أخلاقياتها الربانية مما نقل البشرية نقلة فريدة متميزة لم يشهد التاريخ الإنساني لها مثيلا من قبل، فكانت على النقيض تماما من حال الحضارات الأخرى التي تعاقبت على هذه البسيطة، وعاشت معها الإنسانية وأنجزت ما أنجزت من علوم بارعة، لكنها لم تتورع عن

تسخير إنجازاتها العلمية في أحط الأغراض، وأبعدها عن مصالح العباد والبلاد[١].

لما كانت الشريعة والأخلاق الإسلامية كما ذكرنا آنفا قد وضعت ضوابط وقواعد وأعراف وأخلاقيات للممارسات الطبية العلاجية، وإذا كان المتخصصون في هذا المجال قد حققوا إنجازات مادية علمية عظيمة في الفروع المختلفة لمجالاتهم، إلا أنه ليس لديهم العذر أن يقصروا في تطبيق الجانب الديني والأخلاقي لممارساتهم ، والذي يمكن أن يصحح المسار، ويحقق التوازن المنشود بين الدين والدنيا، وينشلها من حالة الضياع التي تتخبط فيه على غير هدى[٢].

لذا كان الدافع الأساسي الذي دفعنا إلي هذه المحاولة البحثية ما لمسناه وسمعنا عنه وكتبت به وسائل الأعلام المختلفة المكتوبة والمرئية، من خروج بعض أطباء العصر عن المألوف الديني والأخلاقي، وجهل عن قصد أو بغير قصد بالأحكام الشرعية والأخلاقية للممارسة المهنية. وكان أخر ـ وليس أولا ولا أخيرا ـ ما عرض من تجاوزات في هذا الخصوص من قيام طبيبين من أطباء مستشفى الكرنك الدولي بمدينة الأقصر بالتحرش بالنساء المرضى وتصوير بعض أجزاء حساسة من أجسادهن وهم شبه عرايا أثناء إجراء عمليات الفحوصات الطبية لهن . مما كان له وقع اجتماعي خطير وردود فعل ساخطة بشدة، هزت وزلزلت المجتمع الأقصري والصعيدي أجمع. وربما تعرض الطبيبين لحالة من محاولات القتل من قبل أهالي هؤلاء النسوة. وما قامت به طبيبة نساء وتوليد تعمل بوزارة الصحة، من كشف لأسرار المرضى عبر عرض فيديو لها تم بثه مباشرة عن

---

(١) أحمد محمد كنعان : الموسوعة الطبية الفقهية ، لبنان ، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٠، ص ١٩ .

(٢) أحمد كنعان : نفس المرجع السابق والصفحة

طريق شبكات التواصل الاجتماعي على حسبها الشخصي، تحدثت فيه علنا عن بعض حالات مرضاها اللواتي جئن إلي عيادتها الخاصة للعلاج، مما أثار جدلا وسخطا كبيرا بعد اتهامها بتسريب أسرار المرضى وأنها كشفت خصوصيات لا يجب الخوض فيها، حيث قامت بالتشهير بهن، متحدثة بألفاظ لا تليق بأخلاق المهنة، واحيلت هذه الطبية للنيابة التي أجرت تحقيقا معها وخرجت بكفالة لحين البت النهائي في القضية، وكل ذلك وغيره خلال شهرين متتالين.

إذن تطالعنا دوما هذه الشواهد الكثيرة على مخالفة آداب المهنة والسعي وراء الرذيلة، كما تطالعنا شواهد أخري على جشع الأطباء عديمي المروءة والخلق والدين والأمانة الذين يتاجرون بالمهنة، ويسعون وراء الثروة والنفوذ، فهل وصل الأمر إلي أن تصبح ظاهرة تسترعي الانتباه تسطيع أن تحول مهنة الطب النبيلة إلي مهنة تغلفها الرذيلة بعد أن كانت على مر العصور واحدة من أنبل المهن . " وحاشا لله أن تصبح كذلك "

يتضح لنا من هذه الممارسات الطبية المنحرفة أن هناك جهلا شديدا بالغا بالأحكام الشرعية والأخلاق والأعراف والتقاليد التي تتعلق بالممارسة الطبية مع المريض، وربما يعود ذلك أيضا إلي غياب الوازع الديني والأخلاقي لدى بعض الأطباء، وأيضا إلي غياب المصادر والمراجع الفقهية المرشدة للعقد الاجتماعي بين المرضى والقائمين على تطبيبهم

أمام هذا الخوف الشديد من علماء وكبار فقهاء الأمة على مهنة الطب، جاءت جملهم التقريرية الصائنة والحافظة والمقدرة لهذه المهنة وأهميتها فنرى الإمام الشافعي يقول : " لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب "[1] كما أن نظام

[1] عبد الرحمن النقيب : المرجع السابق، ص١٠٣ .

العروضي السمرقندي قال في أهمية ونبالة هذه المهنة بالنسبة للحكام : " قوام الملك بالكاتب، وتخليد الاسم بالشاعر، ونظام الأمور بالمنجم، وصحة البدن بالطبيب "[١].

أما الدافع الأخر لهذه المحاولة البحثية هو في مضمونه يتعلق بالعقد الاجتماعي والدستور الأخلاقي الرابط للممارسات الطبية بين الطبيب والمريض، فكما هو معروف أن تطور المعارف العلمية يثبت لنا يوما بعد يوم، أنها شبكة متصلة لا يغني بعض فيها عن بعض. فتاريخ علم الطب مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمعرفة التاريخية والفلسفية وبعلم الصيدلة والنبات وعلوم أخرى كثيرة متداخلة. كما هدفنا أن يكون هذا البحث عونا للأطباء المعاصرين في ممارساتهم لمهامهم الطبية في فنون وصناعة مهن الطب المختلفة، كما وددنا أن يكون أيضا عونا للمرضي لمعرفة ما يجب عليهم ولهم من حقوق وواجبات على مطبيهم.

إذن كان ولابد من تفكير أخلاقي جديد بعد هذا التحولات التي فرضها علينا هذا التطور والتقدم العلمي الهائل في مجال الطب ومسيرته الكاسحة، وما يرتبط به من قضايا وإشكاليات مجتمعية واخلاقية ودينية، يبعد هذا التفكير من النمط الاخلاقي النظري إلي وضع فلسفة علمية تطبيقية في المجال الأخلاقي، ليس في مهنة الممارسة الطبية، بل في شتى مناحي الحياة. لتضع هذه الفلسفة العلمية التطبيقية جملا من القواعد العامة التي تسعى إلي تقنين الممارسات الطبية على أساس المداولات والتوافق على سياقات مجتمعية معينة متخذة من التراث الطبي الحضاري الإسلامي أساسا لها. لتصبح فلسفة ذات أرضية واقعية تاريخية طبية

---

[١] عبد الرحمن النقيب : نفس المرجع السابق، ص ١٠٥ .

تعي بالإجراءات الواقعية والتطبيق العملي لما هو حقوقي أخلاقي لمفهوم الواجب في مجال أخلاقيات المسؤولية الطبية، وللحد من تغول هذا التطور التكنولوجي.

يتناول هذا البحث عدد من المحاور الرابطة في العقد الاجتماعي لأخلاقيات الممارسة العلاجية الطبية في الحضارة الإسلامية.

- **يأتي أول هذه المحاور موضحا العلاقة بين الطبيب والمريض :**

لعلنا نبدأ بحثنا بأحد أبيات أرجوزة ابن سينا في الطب والذي يقول فيه:

الطب حفظ صحة برء مرض من سبب في بدن عنه عرض[١]

لذا نظر الناس إلي الطبيب نظرة إكبار، حتى أنهم أطقوا عليه قديما وحديثا اسم "الحكيم" لأنهم يتوقون أن يجدوا عنده بغيتهم التي تدفع عنهم أوجاعهم وآلامهم ومعاناتهم ووطأة شدة مرضهم، ومن ثم وجدت العلاقة المباشرة بين المريض والطبيب، تلك العلاقة التي كرست لها الشرائع السماوية لا سيما شريعة الإسلام ما كرست من أحكام تتعلق بالصحة والمرض، فكانت موضع اهتمام خاص في القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث حضت كثير من آيات القرآن الكريم على وجوب الممارسات الطبية الصحيحة السليمة، داعية للعفة والطهارة، وتحريم الخبائث المختلفة التي تضر بصحة الإنسان، وتورث الأمراض المختلفة، داعية أيضا للوقاية من الأمراض وتجنب كل ما يضر بالصحة الشخصية والعامة، حتى صار للطب أبواب مفردة في معظم كتب السنة، وهذا ما دفع فقهاء الأمة الأوائل بالاعتناء عناية بالغة بالفقه الطبي[٢].

---

[١] ابن سينا : الأرجوزة السينائية في المسائل الطبية المعروفة بأرجوزة ابن سيناء في الطب، قدم لها الحكيم عبد المجيد، ١٨٢٩ ، ص ٤

[٢] ابن سينا : نفس المصدر السابق ص ٢٠.

فالإمام الشافعي رضي الله عنه،" كان يذاكر بالطب حتى ظن أنه لا يحسن غيره من علوم. فكان " إلى جانب عظمته في علم الشريعة وبراعته في العربية كان بصيرا بالطب "[١] أما الفقيه ابن رشد الأندلسي فقد قال عنه ابن الآبار في الصلة أنه " كان يفزع إلي فتواه في الطب كما كان يفزع في فتواه في الشرع "[٢].

أما في العصر الحديث والمعاصر فقد عاد الاهتمام بالجانب الفقهي في الطب حيث صنفت كتب متنوعة في مجال الطب الإسلامي، إلي جانب سلاسل من الكتب والدراسات القيمة التي صدرت عن بعض المنظمات العالمية في العالم الإسلامي، إلي جانب عقد عديد من المؤتمرات والندوات الدورية منذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، لكن جاءت كل هذه الإسهامات العلمية كلا في مجالها وتخصصها الدقيق معنية بجانب أو جوانب فقهية طبية محددة ولا نعلم أن هناك عملا واحدا قديم أو معاصر جمع بين دفتيه أحكام وأخلاقيات الممارسات الطبية العلاجية في الحضارة الإسلامية. رغم أن مثل هذا البحث وغيره مطلوب وبشكل قوي وملح أكثر من أي وقت مضى، وذلك راجع لتلك التطورات العلمية في المجال الطبي، وما رافق ذلك من تكنولوجيا التصوير لأجساد المرضى أثناء إجراءات الفحص الطبي[٣].

إلي جانب ما جاءت به آيات القران الكريم والأحاديث النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام من أحكام وأخلاقيات للممارسة الطبية العلاجية، صاغت لنا أقلام أطباء حضارتنا الإسلامية الفذة دساتير وحكم ووصايا ونظريات وخبرات طبية لمساعدة طلاب الطب والأطباء ومعهم كل الممارسين لهذه المهنة

---

[١] أحمد كنعان : المرجع السابق، ج١ ص ٢٠ .

[٢] ابن الآبار : الصلة ، ج١ ص ٢٦٩ ،أحمد كنعان : المرجع السابق، ص ٢١.

[٣] أحمد كنعان : المرجع السابق ص ٢١ .

لتعد رابطة اجتماعية فريدة لا مثيل لها في مضمونها وأهميتها التاريخية الحضارية في أية حضارات أخرى سابقة أو حتى لاحقة بين المريض والطبيب.

فالطبيب الرازي المشهور المتوفي عام **٣١٣**هـ / **٩٢٥** ـ **٩٢٦** م نبه في كتابه "المرشد أو الفصول في الطب" ـ والذي كتبه أخر حياته بعد تراكم الخبرة الطبية لديه على مر السنين، والذي شرح فيه بعض النظريات الطبية لمساعدة طلاب الطب على فهمها، والمتضمن أيضا تجارب وخبرات بعض الأطباء من عرب وأغيار ـ علي أن يكون " الطبيب نظيفا في بدنه وثيابه، ووجهه وشعره، وسائر أعضائه، وفي هيئته ... وزينته، وأن يكون بشوشا، حسن المنطق، طلقا غير عبوسا، أو عجول، أو متهور، أو أشره إلي المال، بل رحيما بالمرضي، حنونا حافظا لأسرارهم، ولا يكون ملقا، بل ذا جلالة في عين المريض "[١].

الفيلسوف والطبيب النحرير الرازي الذي برع في الطب براعة السابقين علما وعملا ركز بشكل قوى على الجانب الأخلاقي عند القيام بالممارسة الطبية، وسطر لنا أقولا لم يغفل فيها التأكيد على ضرورة الأخلاق التي عليها تشاد الحضارات، حيث يرى أنه لا يمكن فصلها عن جانب الممارسة الطبية، ويصح لنا أن نطلق عليها أنها عقود اجتماعية ودساتير أخلاقية في أصول ممارسة المهن الطبية يجب التمسك بها في كل زمان ومكان وعلى مر العصور[٢]. فالطبيب الرازي يضعنا أمام حالة من التأمل والتخيل والتفكير في حال تجرد الطبيب من الأخلاق الحميدة

---

[١] أبو بكر الرازي : الطب الملوكي : تحقيق د / محمد ياسر ذكور، المملكة العربية السعودية، جدة ، دار المناهج، عام **٢٠٠٩** م ص **٥٦** .

[٢] الرازي : المصدر السابق، ص**٦٩**.

فيقول: "تأمل مثلا الطبيب وقد تجرد من الأخلاق الكريمة، إنه يصبح سفاحا للدماء، فاضحا للأعراض"(١).

تعد رسالة الطبيب النحرير الرازي المليئة بالنصح الأخلاقي الطبي، والموجه إلى أحد تلاميذه وهو ـ أبو بكر بن قارب الرازي حين دعاه أحد أمراء خرسان ليكون طبيبا له ـ دستورا أخلاقيا وعقدا اجتماعيا في أسلوب السلوك بين الطبيب والمريض، فهي ترسم بوضوح لا مثيل له في بقية الحضارات التي أرخت لعلم الطب والممارسين له، أهم المبادئ التي يجب أن يتعامل بها كلا من الطبيب والمريض. ولعل هذه الرسالة نافعة لكل الناس جميعا متخصصون أو غير متخصصين، مرضى أو أصحاء.

رفع الرازي أخلاق وآداب مهنة الطب وممارسته إلي مستوى عال رفيع، جعله في مصاف العلماء في تاريخ علماء العالم، فنراه ينصح تلميذه قائلا: " فأول ما يجب عليك: صيانة النفس عن الاشتغال باللهو والطرب، والمواظبة على تصفح الكتب، ... كن رفيقا بالناس، حافظا لغيبهم، كتوما لأسرارهم، وغض طرفك عن النسوة ذوات الحسن والجمال، وتجنب لمس شيء من أبدانهن، وإذا أردت علاجهن فاقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه، واترك إجالة عينيك عن سائر بدنها، بذلك تكبر في أعين الناس، ويزداد احترامهم لك وكن لطيف الكلام، حلو اللسان لينا لعلاج الجسم والروح معا"(٢).

كما حرص الرازي على أن يكون عقل الطبيب حاضر لا سيما في وقت العلاج مشيرا إلى الضرر البالغ الذي يسببه السكر حيث تضيع به شخصية

(١) أبو بكر الرازي : أخلاق الطبيب : تحقيق وتقديم د / عبد اللطيف محمد العبد ، القاهرة ، مكتبة دار التراث، ١٩٧٧ م ، ص ٢١ .

(٢) الرازي :أخلاق الطبيب : ص ٤٤ الطب الملوكي ص٧١.

الإنسان، والقعود به عن ادارك المطالب الدينية والدنيوية " وإياك ومعاقرة الشراب، إذا كنت معنيا لخدمة الملوك والأكابر، فإنه ربما احتاج إليك في وقت فتصادف سكران فيصغر في عينيه، ويقع في علاجك من الخطأ ما لم يمكنك من تداركه"[١] مركزا على أهمية النعمة التي فضل الله بها الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرى فقال "من لم يكن له عقل ولا فطنة ولا حيلة فليس بحكيم"[٢].

في واحدة من أروع نصائحه في صناعة الطب وممارسته يلمح إلي مظهر من المظاهر التي يتحلى بها علماء وفقهاء الحضارة الإسلامية الذين كانوا كلما على بهم المصاف العلمي ازداد تواضعهم فنراه يقول: " أعلم أن التواضع في هذه الصناعة زينة وجمال، دون ضيعة للنفس، فتواضع بحسن اللفظ، وجيد الكلام ولينه وترك الفظاظة والغلظة على الناس"[٣]، وأمام هذا التواضع الأخلاقي السامي، لم ينتهز الرازي يوما فرصة للثراء والتكسب من مهنته هذه، بل كان يرى أنه لا يصح للإنسان أن يتكسب مالا كثيرا نظير العمل الذى يزيد عن طاقته، وألا يصبح عبد للعمل، إلا أنه عليه أن يوازى بين دخله ومنصرفه "[٤].

في نصيحة ثانية للرازي لتلميذه يؤكد فيها على الرفق بالمريض وحفظ أسراره فيقول: "أعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقا بالناس، حافظا لغيبهم، كتوما لأسرارهم غاضا لطرفه، متجنبا التحرش بالنساء ذوات الحسن والجمال"[٥]، ويتجلى هذا الدستور الأخلاقي في ملامسته للقضايا التي لها علاقة

---

[١] الرازي : أخلاق الطبيب، ص ٤٩ .

[٢] الرازي : الطب الروحاني، ص ٦٢ـ٦٣ .

[٣] الرازي : أخلاق الطبيب، ص ٨٤ .

[٤] الرازي : نفس المصدر السابق، ص٨٤ الرازي : الطب الملوكي ص ٧٠.

[٥] الرازي : أخلاق الطبيب ، ص ٢٩ .

مباشرة بين الطبيب والمريض، حيث لم يكن في معزل عن المجتمع ، مقدما نفسه قدوة للناس قولا وعملا، منبها الناس إلي أن يكونوا أُقوياء الإرادة ضد الملذات، مطالبا إياهم بإعمال عقولهم في رفع الهوى وتذليل الإرادة التي تفقدهم سعادتهم. وفي هذا الصدد جاء الطبيب التونسي محمد بن عثمان الصقلي المتوفي عام **٨٢٠** هـ / **١٤١٧** م مؤكدا بعد أكثر من خمسة قرون على ما ذكره الرازي بضرورة التمسك بالإرادة لدى المريض حيث ختم كتابه المختصر الفارسي بالقول:" أعلم أن القوة المدبرة للبدن هي المقاومة للمرض، وإنما الطبيب الحاذق هو عون الطبيعة في دفع الأمراض بحسب ما يحتاج إليه من التوفيق، فالطب حيلة حتى يتقوى على المرض وقلع سببه"[١].

في إطار العلاقة الرابطة بين الطبيب والمريض ينبه الرازي على ضرورة الحفاظ على نفسية المريض وعدم وهمه بصعوبة الشفاء من مرضه فيقول في ذلك:" ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا بالصحة، ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس "[٢]؛ حيث يرتكز العلاج على معرفة أمزجة المريض مفردة كانت أو مركبة ، وذلك بعدد من العلامات[٣].

طلب كلا من الرازي والزهراوى من الطبيب الرفق والتلطف والتثقيف في عمله "عمل من طبب لمن حب، وهو معلم وموأس، متلطفا في علاج الأمراض بالأغذية دون الأدوية ما أمكن"[٤] وأكد الزهراوي على أهمية ملازمة الطبيب

---

[١] أحمد بن ميلاد : الطب التونسي العربي في عشرة قرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط**٢** **١٩٩٩** ص **١١٢**.

[٢] الطب الملوكي ، ص **٧٠** .

[٣] أحمد بن ميلاد : المرجع السابق ص **٣٣** .

[٤] الرازي : الطب الملوكي ، ص ، **٧١** ، **٩٩** الزهراوي : كتاب التصريف لم عجز عن التأليف، تحقيق عبد الله عبد الرازق، عمان ، المكتبة الوطنية، **٢٠٠١** ، ص **٢٥**

للمريض العليل من أجل أن يستطيع ملاحظة أحواله التي ربما يعجز عن التعبير عنها، وفضل تلك الملازمة عن المدة الزمنية المستغرقة لعملية الشفاء " إن الزمن أبلغ الأشياء مما يحتاج إليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة وحسن مساءلة العليل، وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب للعليل وملاحظة أحواله، وذلك لأنه ليس كل عليل يحسن التعبير عن نفسه، وربما كان بالعلة من الغموض ما لا يتسني للعليل ـ وإن كان عاقلا ـ التعبير عن نفسه"[١]؛ لذا أوجب الرازي على كل طبيب أن ينقب على العلة مهما خفيت[٢]، وأوجب الرازي على الطبيب أن يلازم المريض بعد اعطاءه للدواء لئلا يخطى المريض في تناول الطعام والشراب الذى من الممكن أن يتفاعل تفاعلا خاطئا، ويضر بمناعته ضد الأمراض، كما أوجب على الطبيب أن يدخل على المرضى كل يوم ويقعد بالقرب منهم ويجس نبضهم ويتابع حالتهم الصحية، بدون أن يكون كثير الكلام في مجلس المريض، إلا إذا بدأ المريض به، أو بعض ندمائه[٣]. أيضا وقد كان الرازي ذو فراسة قوية في فهم نفسية المرضى ولديه تجارب في الكيفية التي يتعامل بها مع كل مريض على حدة.

طلب الرازي من الطبيب توخي الحذر فيما يتعلق بنوعية وخطر مرض المريض، طالبا كتم أسرار أصحاب الأمراض المعضلة والتي يتوقع منها أن تنتهي بحالة وفاة المريض "ينبغي على الطبيب أن يكون ... حافظا لغيبهم، كتوما لأسرارهم، لا سيما أسرار مخدومه، فإنه ربما يكون يبعض الناس من المرض ما يكتمه من أخص الناس به ، مثل أبيه وأمه ولده، ويفشونه إلي الطبيب ضرورة"[٤].

---

(١) الرازي : الحاوي ، ج١ ص ١٢٨ .

(٢) الرازي : أخلاق الطبيب، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣) الرازي : المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤) الرازي :نفس المصدر ، ص ٣٩ .

في إطار هذه العلاقة الرابطة بين الطبيب والمرض، ونظرا لخطورة الأمر لا سيما فيما يتعلق بمداوة النسوة لدى الطبيب، وما يترتب على ذلك من تداعيات سلوكية وأخلاقية ودينية نرى الرازي خبيرا يحذر من اتباع الهوى ويراه مضرا كثيرا بسمعه الطبيب، كما يراه مبدئا أساسيا لإصلاح الأخلاق " ورأيت من تعاطي النساء قال الناس فيه، فتجنبوه، ورفضوه، وحرم الدخول على الملوك وعلى الخاصة والعامة، فليحذر المتطبب هذه الأمور كما حذرته إياها "[١]، وفي هذا الخصوص التحذيري أراد الرازي محاولة إصلاح أخلاق نفوس الأطباء قبل أن يبدأ هؤلاء في إصلاح أجسام المرضى فنراه يهتم بهذه الميادين بالغ الاهتمام. فينهي المتطببين من العجب والتكبر، على الناس، لا سيما من أختص منهم بخدمة ملك أو أمير، فيتكبر على العامة ويحرمهم العلاج ويغلظ عليهم القول، ودعا الرازي إلي أضداد هذه الخصال. مطالبا منهم بمعالجة الفقراء كما يتم معالجة الأغنياء[٢]. وكانت رغبة الرازي في علاج الفقراء أشد من الأغنياء، ولذا سعى إليه المرضى من كل مكان، وكان يجري على الفقراء الجرايات الراسمة. مطبقا نظرية العقد الاجتماعي على نفسه أولا قبل أن يطبقها على تلاميذه، فوصف بأنه كان كريما متفضلا بارا بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء[٣]. ولا عجب أن نرى الطبيب ابن الجزار القيرواني يؤلف كتابا خاصا بمعالجة الفقراء قد شاع في البلدان خبره وحسن عند الحكماء أثره، وقد ألفه ابن الجزار لأن الفقراء يعجزون عن ادارك منافع ذلك الكتاب وغيره من سائر الكتب التي ألفها الحكماء السابقون، فألف بسبب ذلك

---

(١) الرازي : المصدر السابق، ص ٢٧ ،٢٨ .

(٢) الرازي : نفس المصدر السابق، ص ٢٩.

(٣) ابن الجزار القيرواني : طب الفقراء والمساكين، المسمى بزاد المسافر، ص ٣٨ .

كتابا بالأدوية التي يسهل وجودها بأخف مؤنة وأيسر كلفة ، فيسهل عند ذلك على الأطباء علاج العلة[١].

قد أكد الرازي على أهمية مهنة الطب وذلك من خلال نصيحته التي قدمها لتلميذه حيث قال ." بلغني ـ أمتع الله بك ، وبالنعمة فيك، ـ أنه دعاك الأمير فلان إلي حضرته، واختصك بخدمته، معتمدا في ذلك عليك. وملقيا بأسبابه إليك، وقد أحسن الظن بك من اختصك لنفسه، اعتمد عليك من جعلك أمين روحه "[٢] كما أشار ابن رشد الطبيب الأندلسي إلى أهمية هذه المهنة، وذلك من خلال قوله : " إن علم الطب علم طويل، وأن على الطبيب قبل أن يزاول مهنته أن يتدرب في التشريح كما ينبغي أن يكون مطلعا تماما على العظام والأوتار والعضلات وأعدادها وارتباطها بعضها ببعض وكذلك الشرايين والأوعية الدموية وما يتصل بها "[٣] مؤكدا على أن " الحقيقة في الطب غاية لا تدرك، والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الحكيم سرا به خطر "[٤] على أن الطبيب الزهراوي كان أكثر تأكيدا في مسألة جودة الممارسة الطبية حيث قال: " من لم يكن عالما في فن التشريح لم يخل أن يقع في خطأ يقتل الناس به"[٥] مقدما نصحه الفريد في هذا الصدد " لهذا يا بني ينبغي لكم أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم على قسمين، عمل تصحبه السلامة، وعمل يكون فيه العطب في أكثر الحالات " فالعمل الذي فيه الضرر والخوف فينبغي لكم أن تحذروه وترفضوه لئلا يجد الجهال السبيل إلى القول والطعن، فخذو أنفسكم بالحزم والحيطة، ومرضاكم بالرفق والتثقيف، واستعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلي

(١) الرازي : نفس المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ٤١٦عيون الأنباء ، ٤١٦ ، أخبار العلماء ص ١٧٨.

(٣) الرازي :نفس المصدر السابق ،ص ١٢.

(٤) الزهراوي : كتاب التصريف لم عجز عن التأليف، ص ٧٥ـ٧٦ .

(٥) الرازي : الطب الملوكي، ص ٦٩.

السلامة والعافية المحمودة، ونكبوا الأمراض الخطيرة العسرة البرء، ونزهوا أنفسكم عن ما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم، فهو أبقي لجهالكم، وأرفع في الدنيا والأخرة لأقداركم "[١].

نجد في هذا العقد الاجتماعي والدستور الأخلاقي الرابط بين الطبيب والمريض شرف لمهنة الطب وشرف أكبر لمن يمارسها لو تمسك بهذا العقد الاجتماعي والدستور الأخلاقي، ولنا مثلا في هذا التمسك الأخلاقي من خلال تلك المحاورة التي دارت بين الخليفة المتوكل العباسي وطبيبه حنين، فحين طلب الخليفة من طبيبه أن يصنع له سما يقتل به أحد من رعيته، امتنع الطبيب حنين، فحبسه الخليفة ثم أحضره وجدد له الطلب، فاعتذر قائلا : " إن الصناعة جعلت في رقبتي أن لا أصنع دواء ليقتل رجلا "[٢]. أما الرازي فكان حريصا أشد الحرص في رسالته التي كتبها إلي أحد تلاميذه على ما يواجه الطبيب الذى يخدم الأمراء والسلاطين من مشاكل مماثلة لما سبق فوجه نصحه لتلميذه قائلا: " وإياك وذكر شئ من السموم القاتلة بين يدي الملك أو سوقته ... فهي بمعزل عن صناعة الطب، ... وتركها أصلح من ذكرها .. وإن سألك عنها فلا تجيب عن ذلك، ولا تشرع في ذكرها، والق نفسك منها جانبا "[٣]. أعلم أن من أصعب الأشياء للطبيب خدمة الأمراء، ومعالجة المترفين والنساء، فإن الطبيب الحر السيرة إذا اشتغل بصناعته، فإنه يعيش بخير، ويكون عليهم أميرا، ومن عاداته أن يأمر، وليس يؤمر أبدا"[٤].

---

[١] الرازي : المصدر السابق، ص ٢٥ .

[٢] أحمد بن ميلاد : الطب العربي التونسي ، ص ٤٥ .

[٣] الطب الملوكي ، ص ٧١.

[٤] الرازي : أخلاق الملوك ص ٨١

ثم أعقب الطبيب الرازي ذلك بإشارة منه لتلميذه بأن ليس كل الملوك والسلاطين والأمراء على علم، بل يوجد من بينهم أميون فاحذرهم " إن الأمراء والملوك الرؤساء من يكون عليها، ومن الأكابر من يصادف أميا فيحسبون بقلة علمهم، وكثرة جهلهم أن كل من نسب إلى علم، فهو خليق بأن يجيب عن كل ما يسأل من ذلك العلم ،فإن غبى بمسألة فإنهم ينسبونه إلي الجهل "[١]، ونبه الرازي علي خطورة ما يطلق عليه مدعوا الطب ووصفهم بأنهم ليسوا أطباء وأن اللصوص وقطاع الطرق خيرا منهم، كما حذر من وصفهم بأنصاف الأطباء قليلو الخبرة لممارستهم لمهنة الطب فاعتبر " الأطباء الأميون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلت عنايتهم منهم، وكثرت شهواتهم قاتلون "[٢]، وجاءت رسالته في هذا الصدد بعنوان أن "جهال الأطباء يشددون على المرضى في منعهم من شهواتهم ". وهو في ذلك يسير على النهج القرآني الذي أعلى من شأن الخبرة كما جاء في قوله تعالى: { ولا ينبئك مثل خبير }[٣] ، ودعا سبحانه وتعالى للاعتماد على ذوي الخبرة فقال تعالى: { فسئل بها خبير }[٤].

أما الخبرة في مجال الممارسة الطبية فقد ورد فيها آثارا كثيرة نبوية، فأشار النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من يمارس الطب هو أكثر خبرة وكفاءة في هذا الحقل الإنساني، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم [أيكما أطب] وفي هذا تقدير وتأكيد على أهمية وقيمة الخبرة في مزاولة الممارسة الطبية. وقد جرت العادة في الحضارة أن يختبر الأطباء قبل الترخيص لهم بمزاولة المهنة، وكان أول من أمر بامتحان الأطباء هو الخليفة المقتدر بالله العباسي عام **٣١٩** هـ الذي أمر المحتسب أحمد بن بطحا بن

---

[١] الرازي : نفس المصدر السابق ، ص٧٠.

[٢] الرازي : نفس المصدر السابق ص ٨١

[٣] سورة فاطر آية ١٤.

[٤] الفرقان آية ٥٩ .

أبي أصيبعة أن يمنع جميع الأطباء من ممارسة المهنة، إلا بعد أن يمتحنهم الطبيب ثابت بن قره وذلك بعد أن تسبب أحد الأطباء في موت مريض بمدينة بغداد علاجه خطأ[١].

أكد الرازي على أهمية خبرة الطبيب وحذقه عند ممارسة مهنته " فينبغي للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته، من داخل ومن خارج، ثم يقضي بالأقوى " لذا أوجب الرازي جلوس الأطباء بجانب أسرة المرضي لمعرفة حالتهم ومراقبتهم سريريا مطالبا الأطباء بعدم الاقتصار علي التجارب دون القياس وقراءة كتب الحكماء والإشراف علي أسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر (٥٣) وبعد ذلك بعدة قرون في عهد بنو حفص بإفريقية رأى سلاطينهم ضرورة أن يتقدم انتصاب الطبيب مزاولا لمهنته امتحانا تشرف عليه لجنة تحت رئاسة السلطان [٢]. فيذكر الغبريني في عنوان الدراية أن السلطان المستنصر ترأس مجلس اختيار الطبيب أبو القاسم محمد الأموي المعروف بابن أندراس من أهل مرسيه وكان قد ورد إلي مدينة بجاية وبسط لقراءة الطب والعربية"[٣].

أما عن محمد بن عرفة الورغمي المشهور بالإمام ابن عرفة المتوفي عام ٨٠٣هـ والذى كان بجانب أنه فقيه مشهور، كان ماهر بالطب عندما مرض وعاده الطبيب محمد بن عثمان الصقلي وجلس عند رأسه وسأله بالحال فعلم الداء ووصف الدواء[٤].

---

[١] أحمد كنعان : الموسوعة الطبية الفقهية، ص ٤١٦ .

[٢] الرازي : نفس المصدر السابق ، ص ٦٦، ٦٩ ، ٧٠ .

[٣] أحمد بن ميلاد : الطب العربي التونسي، ص ٣٢ .

[٤] أحمد بن ميلاد : المرجع السابق ، ص٣٢ .

في حين كان ابن الجزار القيرواني قطب أطباء القيروان والمولود حوالي **٢٨٥**هـ / **٨٩٥** م ـ والذي نشأ في بيت طبي حيث كان أبوه وعمه أطباء وهو مما امتازت به أجيال من أسرة واحدة ـ كان مرتبطا بمجتمعه مشاركا له في حياته اليومية حيث عرف أنه كان يشهد جنائزهم وأعراسهم، وقد خص الفقراء منهم بكتاب في الطب، وهي ظاهرة اجتماعية لم نجد لها ما يماثلها عند قدماء الأطباء وأطباء العرب من قبله، وبفضل هذه الأخلاق الحميدة والسيرة المثلى وتضلعه في الطب وقع عليه في مهنته إقبال عظيم، فكانت عيادته تغص بالحرفاء[١].

أما طبيب مملكة غرناطة ذائع الصيت في مجال الطب محمد بن إبراهيم المشهور بابن السراج والذي عاش في بلاط بنى الأحمر وكان طبيبا خاصا لمحمد الثاني، اشتهر بعمل الخير إذ كان يداوى الفقراء مجانا، ويفرق أمواله على المحتاجين[٢]. وقد شارك الأطباء هموم مجتمعهم فعندما غلت المعيشة بتونس زمن الناصر وقل وجود الشعير فقام الطبيب أبو الحجاج يوسف بن موراطير الأندلسي بعمل موشح للخليفة الناصر الموحدي وأتي في ضمنه تغير بيت عمله الحفيد بن زهر وذلك أن ابن زهر قال :

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب إنما العيد في التلاقي مع الحبيب

فعدل ابن موراطير قول ابن زهر الحفيد بما يتناسب مع الأوضاع المعيشية الصعبة التي يمر بها آنذاك المجتمع التونسي، وكان هذا التعديل يراد به وصول هذه الأوضاع المتردية إلي الخليفة الناصر فقال :

---

[١] أحمد بن ميلاد . المرجع السابق، **٥٤** .

[٢] أنس عبد الهادي الحسيسن : المغرب والأندلس صلات في قرن الأفول، الكويت، مجلة عالم الفكر، العدد **١٩٣** أبريل ـ يونيو **٢٠٢٤**، ص **٢٦٦** .

ما العيد في حلة وطاق من الحرير إنما العيد في التلاقي مع الشعير[١].

في إطار علاقة هذا العقد الاجتماعي والدستور الأخلاقي طبق الرازي النصائح على نفسه، ثم نبه على طرف المعادلة الأخر وهو المريض بوجوب الالتزام الأخلاقي أمام الطبيب وطاعته والانصياع لأوامره وإرشاداته الصحية، وأن يتحلى في معاملته مع الطبيب بلطف الكلام، موضحا القيمة والأهمية الإنسانية للطبيب " فينبغي لمن يختص المتطبب لنفسه، من الملوك والأكابر والسوقة، أن يبالغ في تطبيب قلبه بلطف الكلام، وأن يرفعه فوق جميع من في مجلسه من خدمه وغيرهم، فإن هم إلا خدام جسم، والمتطبب خادم روح"[٢] " فإذا كان الطبيب عالما، والمريض مطيعا، فما لبث العلة"[٣] " فلا شئ أجدى على العليل، من أن كون الطبيب ماثلا إليه بقلبه، محبا له"[٤]. وقد طالب الرازي من المرضى الإحسان إلي الأطباء ومصانعتهم ، حيث أن لذلك مردود نفسي إيجابي على المرضى في " حفظ صحتهم ومدارة علتهم"[٥]، وحث المرضى على التقرب من مطبيهم وألا يجعلوا وساطة بينه وبينهم، وذلك بسبب أن يكون واقع بالمريض مرض يستحي أن يذكره أمام الوسيط، أو أن الطبيب بعلاج لهذا المرض يكون في ذكره كراهية[٦] محذرا المرضي من كثرة الذهاب لأكثر من طبيب عند إصابتهم بالمرض، مبينا لهم خطورة ذلك " من تطبب عند كثير من الأطباء... يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم"[٧]. فيا لها من هندسة حضارية اجتماعية أخلاقية.

---

[١] أحمد بن ميلاد : المرجع السابق، ص٨٦ .

[٢] الرازي : أخلاق الطبيب ص ٣٢.

[٣] الرازي : نفس المصدر ، ص ٣٥.

[٤] الرازي : نفس المصدر ص ٣٤ .

[٥] الرازي : الطب الملوكي ، ص ٧٠ .

[٦] الرازي : أخلاق الطبيب ، ص٣٤ .

[٧] حديث شريف.

● **المحور الثالث :**

إدارة الدواء والوصفات الطبية والجرعة، والمراقبة الصارمة للعلاج.

التداوي هو تعاطي الدواء بقصد معالجة المريض أو الوقاية من المرض، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتداوى، وكان يأمر بالتداوي لمن أصابه مرض سواء من أهله أو أصحابه، وكان يقول صلى الله عليه وسلم: " إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداوى ولا تتداوى بالحرام"[١].

كما أن الإمام ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه ذهب إلي أن " التداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا وأن تعطيلها يقدح في نفس المتوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة." وأن الانتفاع بالدواء يكون أفضل إذا اقتنع المريض به، وأيقن أنه يشفي بأذن الله وقد أشار بن قيم الجوزية إلي هذه الحقيقة قائلا: "إن من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله واعتقاد النفع به"[٢].

ذهب بعض الفقهاء ـ وهم دعاة تيسير وسماحة وهي سجية للفقه الحق الذي يلتزم بتعاليم شرع الله الذى لو شاء لأعنت الناس جميعا لكنه أراد الله بهم اليسر، ولم يرد بهم العسر، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ـ إلي وجوب التداوي في الحلات التي يغلب على الظن الهلاك بسببها لعموم قوله سبحانه وتعالى { لا تلقوا بأنفسكم إلي التهلكة }[٣] . لذا تندرج مسؤولية المريض في المشاركة الفاعلة في

---

[١] ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد، تحقيق عبد القادر أرناؤط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥ج٤ ص ٧٩ ، أحمد كنعان : الموسوعة الطبية، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ .

[٢] الرازي : الطب الملوكي، ص١٠.

[٣] سورة البقرة آية ١٩٥. ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد، ج٤ ص ١٥ .

خطة علاجه والاستمرار بإعلام الطبيب والمسؤولين عنه عن مدي فاعلية العلاج المتبع، كما تقع على عاتق المريض وذويه المحافظة على الالتزام بمواعيد تعاطي الدواء[١].

حفاظا على صحة المريض وعدم تعرضه لمشاكل وأعراض صحية جانبية بسب تناول الأدوية المركبة فضل العلاج في الحضارة الإسلامية عن طريق الغذاء لأهميته الصحية فالرازي وضع لنا دستور وحكمة صاغها بقلمه الفذ حيث يرى أنه "إذا استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة" وفى نصيحته لتلميذه يقول "مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد، فلا تعالج بدواء مركب"[٢] وقد اهتم الرازي اهتماما فائقا بالوقاية الصحية[٣].

في كتابه المرشد أو الفصول في الطب الذى كتبه في أخريات حياته وضع لنا الطبيب الفذ الرازي نظريات طبية متضمنة تجاربه وخبراته فاكتسب هذا الكتاب أهمية تاريخية حيث استفاد منها من أرخ للطب وصناعته بشكل عام، ومن ضمن ما تضمنه هذا الكتاب عدد من الوصايا التي كانت بمثابة نظريات طبية غراء فيقول في واحدة منها: "الطبيب الحاذق يقدر أن يعالج بدواء واحد عللا كثيرة"[٤]، وكان للرازي اهتمام كبير بمسألة الدواء، فلا يخلو مؤلف من مؤلفاته من أدوية الروح والجسد على حد سواء، ولم يصف دواء لمريض إلا بعد إجراء التجارب على الدواء

---

[١] الرازي : الطب الملوكي، ص ٥٦ .

[٢] الرازي : الحاوي، ج١ ص ٦٩ .

[٣] الرازي : المصدر السابق ،ص ٧٠ .

[٤] الرازي : أخلاق الطبيب ، هامش ص ٤٥ .

ليتأكد من مدى مفعوله، حتى أنه كان يراجع قدماء الأطباء في وصفهم لبعض الأدوية، ويكفي أن نقول أنه خصص القسم التاسع من كتابه الحاوي للأدوية[١].

الطبيب الرازي يعطينا انطباعا أنه كان عالما خبيرا بعروض وجغرافية الأقاليم واختلاف فاعليات الأدوية فيها، فنراه يقول في معرض حديثة عن الأدوية: "أنها تختلف باختلاف عروض البلدان، كما أنها تختلف باختلاف المزاج والأخلاق والعادات، وطباع الأدوية والأغذية، حتى يكون ما في الدرجة الثانية من الأدوية في الرابعة، وما في الرابعة في الثانية"[٢]. هكذا ارتكز العلاج آنذاك على معرفة أمزجة المريض، مفردة كانت أو مركبة ، ويعرف ذلك من خلال علامات تظهر على المريض، وكانت هذه المواد العلاجية هي عبارة عن أدوية مفردة ومركبة، وتتكون من الأشربة والأقراص والحبوب والسفوف والأدهان والضميدة والجبيرة والحقنة[٣]. وذكر الإمام الشوكاني "أن الأطباء اتفقوا على أنه متى أمكن التداوي بالأخف لا ينتقل إلي ما فوقه" وإذا "تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفها"[٤].

كان أطباء العصر يقمون بتركيب الأدوية التي يرونها مناسبة لعلاج الحالات التي يشرفون عليه، فكان الطبيب ابن الجزار القيرواني يجلس للعلاج والتعليم ويصنع الدواء من أشربة وأدهان وأقراص وغيرها بنفسه، ويجعلها بين يدي غلام له اسمه رشيق يجلس بسقيفة داره ليسلمها إلى أصحابها من المرضى، ويقوم هذا الغلام بتسلم ثمنها وأجرة الطبيب[٥].

---

(١) أحمد بن ميلاد : الطب العربي التونسي، ٣٣. ٣٤ .

(٢) أحمد كنعان : المرجع السابق، ص٢٣٦ .

(٣) أحمد كنعان : نفس المرج السابق ، ص ٥٤ .

(٤) الرازي : أخلاق الطبيب ص ٤١.

(٥) الرازي : نفس المصدر، ٤١ .

على أنه كما ذكرنا آنفا أن الطبيب الرازي فضل التداوي بالغذاء أولا ففي نصيحته لتلميذه يقول له :"ويجب أن تعلم كل يوم كمية طعمه، وكيفية طبعه في قلته وكثرته، وهشاشته لذلك أو كراهته، فإن من علم معلم إنسان ومشربه ، ونومه وسهره ، وفراغه وشغله، وسائر أحواله من الباء، وغير ذلك ، فما يقع في علاجه من الخطأ"[١] ثم يستطرد الرازي في نصيحته لتلميذه مؤكدا عليه أهمية علاج مرضاه بالغذاء "ينبغي أن تأمر له في كل يوم أن تتخذ له من الغذاء ما تعلم أنه يكون مصلحا لما تناول في أمسه من أغذية، دافعا لما ينتظر من مضرته، ومل في ذلك إلي ما يشتهي ميلانا ما، فإن الطعام المشتهى أوفق للأصحاء والمرضى ممالا يشتهى، وإذا كان أردأ ، وقدر شرابه وكيفيته وكميته وترتيبه"[٢]. ولم يفت الرازي أن يحذر كثيرا من الإفراط في الطعام والشراب، لأنه يؤدي إلى الهلاك السريع، وقد عقد في كتابه الطب الروحاني فصلا خاصا بذلك[٣]. كما أنه حشد في مؤلفاته حديثا خاصا في ألوان الأغذية، ما يصلح منها وما لا يصلح ، وله رسالة فيما يقدم من الطعام وما يجب تأخيره، وهي رسالة رغب من خلالها مسايرة مظاهر الآداب الاجتماعية في عصره، لا سيما ما كان متصلا بالأمراء والولاة[٤].

كان الرازي في نصائحه دائم الإشفاق على المرضى ويجعل لهم استثناء على حسب مكانتهم الاجتماعية وأعمارهم ومن ذلك نصيحته التي يقول فيها: " وإياك أن تحرم على الملوك، وعلى من ليس من عقلاء الرجال ولا على الصبيان شيئا يشتهونه بمدة، لكن أمنحهم منه يسيرا يسيرا، وحذرهم من الإكثار، فإن ذلك

---

[١] الرازي : نفس المرجع، ٤٢ .

[٢] الرازي : اخلاق الطبيب، ص ٤٣ هامش.

[٣] الرازي : منافع الأغذية، ج ٢ س ٥٥ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة، ط٣ ، ١٩٦٣ ،ص١٠٧ .

[٤] الرازي : الطب الروحاني ، ص ٣٢، أخلاق الطبيب ص ٤٢ عيون الأنباء ، ص ٤٢ .

أحرى ألا يتناولوا منه في السر شيئا كثيرا، وتلاحق ضرر ما يحدث "[١] " وينبغى لك إذا ناولته شربة أو دواء أن تصيب منه بمشهدة مقدارا، فإن ذلك أبعد من التهمة، وأقرب إلي الثقة وأحرى، وتفويض أموره إليك، فأما إذا تولاه بعض غلمانه، أو صاحب شرابه، فليس ذلك بواجب عليك"[٢]. وفي هذا الشأن له مقالة بعنوان "أن جهال الأطباء يشددون على المرضى في منعهم من شهواتهم.

أما بالنسبة للناقهين من المرض طلب الرازي من تلميذه أن يتحايل عليهم فيقول عن حالتهم في اشتهائهم للغذاء :" إذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم، فيجب على الطبيب أن يحتال في تدبير ذلك، وصرفه إلي كيفية موافقة، ولا تمنعهم مما يشتهون البتة، وابحث عما يلائم طبيعة المريض ليعود إلي حالته الأولى "[٣] " فإن دفع مضار الأغذية جزء عظيم من أجزاء الطب في حفظ الصحة"[٤] .

هكذا وضع الرازي أسس التدرج في العلاج، وهو مبدأ هام جدا يأخذ به في علم الطب الحديث والمعاصر. كما لم يفته أن يحذر كثيرا من الإفراط في الطعام والشراب لأنه يؤدي إلي الهلاك السريع حتى أنه عقدا فصلا خاصا لذلك في كتابه الطب الروحاني كما أشار إلي ذلك أيضا في كتابه الحاوي. وهكذا أيضا نجد أئمة وكبار رجالات الطب المشار إليهم آنفا يستخدمون أفعلا من اللغة العربية مثل " ينبغي ـ يجب ـ أحذر ـ واياك ـ أمنح ـ حذر ـ إذا استطاعت ـ إذا قدرت ـ لا تدع ـ أعلم ـ أول ما يجب عليك ـ تأمل. وكلها أفعال توحي بإيمان كامل من هذا الطبيب الفذ بأهمية المسؤولية الفردية للطبيب.

---

[١] الرازي : أخلاق الطبيب، ص ٤٤ .

[٢] الرازي : نفس المصدر، ص ٤٢.

[٣] الرازي : نفس المصدر ، ص ٩٦.

[٤] الرازي : منافع الأغذية، ص

قد ختم الرازي رسالته لتلميذه بنصيحة سلوكية قوية إذا ما وضعها التلميذ نصب عينيه ولازمها في سائر أحواله كان حريا أن يحوز على محبة القلوب والاحترام من الخاصة والعامة، ويجازى بها خيرا في الدنيا والأخرة. قائلا له: "أعلم أنك إذا تملكت هذه الخصال، ولازمتها في سائر الأحوال، كنت حريا بأن يخصك الملوك والسوقة، ويقبل عليك الخاصة والعامة، ولا تخلو في ذلك من ثواب وذخر، وجزيل مثوبة، وحسن ذكر "[١]

في النهاية لنا أن نقول أن هذه النصائح الفريدة التي سطرها قلم هذا الفذ النحرير ورسائله القصيرة التي قام بتأليفها في أخلاقيات الممارسات الطبية، إضافة إلي ما سطره لنا كبار علماء الطب مثل ابن الجزار القيرواني والزهراوى وابن رشد تعد دستورا وعقدا اجتماعيا يحكم العلاقة المباشرة وغير المباشرة بين المرضى ومطبيهم. ولعل هذا يعد من أبرز المتغيرات الحضارية التي جاء بها الإسلام.

هكذا نحن أمام مدرسة أخلاقية بارعة تدرس وتطبق فيها أسمى أخلاقيات مهنة الممارسة الطبية، وأمام هندسة معمارية عمرانية لمدرسة طبية أخلاقية فريدة، ودستور ومبادئ وحكم صاغها قلم هذا الفذ النحرير. مؤكدا في أسلوب بارع ضرورة تحلى الطبيب بأخلاق حميدة تصان بها نفسه، مطلعا على كل جديد في مجال تخصصه، " يستكثر من قراءة كتب الحكماء، والإشراف على أسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر "[٢].

---

[١] اخلاق الطبيب ص٩٤ .

[٢] الرازي: نفس المصدر ص٧٠.

مصادر البحث

أولا القرآن الكريم.

ثانيا الحديث النبوي.

ثالثا : المصادر العربية:

١- الإمام العزالي (زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي مولود عام ٤٥٠هـ)

----------: إحياء علوم الدين، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٥

٢- أبو بكر الرازي (أبي بكر محمد بن زكريا الرازي ت ٣١٣ هـ / ٩٣٤-٩٣٥ م

----------: أخلاق الطبيب : تحقيق وتقديم د / عبد اللطيف محمد العبد ،

----------: الطب الملوكي : تحقيق د / محمد ياسر ذكور، المملكة العربية السعودية، جدة ، دار المناهج، عام ٢٠٠٩ م

٣- الجرجاني (على بن عبد العزيز بن الحسن بن على القاضي ٣٢٢ - ٣٩٢ هـ / ٩٣٣ - ١٠٠١ م)

----------: كتاب التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣

٤- ابن الجزار القيرواني (أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد ٣٧٣ - ٣٩٣ هـ / ٨٨٤ - ٩٠٦ م)

----------:طب الفقراء والمساكين، المسمى بزاد المسافر. تحقيق وجيهه كاظم آل طعمة، طهران ١٩٩٤ .

٥- الزهراوي (أبو القاسم خلف بن عباس ٩٣٦-١٠١٣ م)

----------:كتاب التصريف لم عجز عن التأليف، تحقيق عبد الله عبد الرازق، عمان ، المكتبة الوطنية، ٢٠٠١ ،

٦- ابن سينا (الشيخ الرئيس أبو على بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ٣٧٠ - ٤٢٧هـ / ٩٨٠-١٠٣٧ م)

- الأرجوزة السينائية في المسائل الطبية المعروفة بأرجوزة ابن سيناء في الطب، قدم لها الحكيم عبد المجيد، ١٨٢٩ ،

٧- ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الدمشقي ٦٩١ـ ٧٥١ هـ/ ١٢٩٢ـ ١٣٥٠ م):

----------: زاد الميعاد، تحقيق عبد القادر أرناؤط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

٨- ـ ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي ابو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري ٦٣٠ـ ٧١١ هـ/ ١٢٣٢ـ ١٣١١ م)

----------: لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٣

رابعا : المراجع :

١- أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة، ط٣ ، ١٩٦٣ ،ص١٠٧ .

٢- أحمد بن ميلاد : الطب التونسي العربي في عشرة قرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢ ١٩٩٩ .

٣- أحمد محمد كنعان : الموسوعة الطبية الفقهية ، لبنان ، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٠ .

٤- أنس عبد الهادي الحسيسن : المغرب والأندلس صلات في قرن الأفول، الكويت، مجلة عالم الفكر، العدد ١٩٣ أبريل ـ يونيو ٢٠٢٤ .

٥- عبد الرحمن النقيب : الإعداد المهني للطبيب عند المسلمين، القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

٦- مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ،الكويت ، ج٩، واجبات المرضى وذويهم نحو أفراد الهيئة الطبية.